

وحدة الأمة العربية من خلال خطبة الوداع



د. سامي عفيفي حجازي (*)

حال الأمة قبل الإسلام وبعده :

لقد مرت على الإنسانية منذ القدم فترات مظلمة كان الناس فيها يتخبطون في الضلالة . ولا يعرفون لهم هدفاً واضحاً يتجهون إليه، وقد أوحى لهم عقولهم القاصرة بفروض واحتمالات لم تلبث أن استقرت في نفوسهم وتوارثها أبناؤهم جيلاً بعد جيل ..

ولذا فالحديث عن المجتمع العربي في الفترة التي سبقت ظهور الإسلام حديث لا يكتفه الغموض الذي كان يكتنف العصور القديمة، لأن الأضواء كلها قد تسلطت على تاريخ العرب بعد ظهور الدين الإسلامي الذي ارتضاه الله للعالمين فتكشفت كل الحقائق عن الفترة السابقة التي جاء الإسلام على أثرها .

١) أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين - القاهرة .

قال الله تعالى : "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" (سورة الجمعة : الآية ٢) .

نعم : لقد بعث الله خاتم أنبيائه ورسله إلى العرب، فقد كانوا قبل بعثته يعيشون في صحراء الجزيرة ووديانها، وبين جبالها منعزلين عن العالم حولهم. قاتعين بالمعيشة القاسية التي يعيشونها على أرض هذه الجزيرة القاحلة، يولدون ويعيشون ويموتون لا يرون إلا الجبال حولهم، ولا يمتنون إلا رعي الإبل والغنم بالإضافة إلى حرفة التجارة داخل الجزيرة أو خارجها .

وهكذا عاش العرب في جزيرتهم، بدوا رحلاً وراء الماء والمرعى، منقطعين عن العالم، متخلفين عنه، قانعين بتقاليدهم ومعارفهم المشتتة، عاكفين على عبادة الأصنام، يعدو بعضهم على بعض، ويتسلط القوي فيهم على الضعيف، ليس لهم دين صحيح يخضعون له، ولا وحدة عامة توحد أمرهم وتجمع شملهم، بل يعيشون مفتتين مفرقين، بل ربما تتفرق القبيلة، ويفني بعضها بعضاً ..

وكانوا مع ذلك كله أصحاب عقول راجحة، ونوي نجدة ومروءة وإباء .. كانوا أرضاً خصبة تحتاج إلى من يرويهها ويتعهد لها لتخرج أطيب الثمرات، وأجمل الأزهار والرياحين ..

وكانوا كالمعدن المغطى بالصدأ من كثرة الإهمال ويحتاج إلى من يجلو صداه، ليظهره على حقيقته، التي جبل عليها .

فكانوا الأمة الوسط التي اختار الله منها خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد ﷺ وأنزل بلغتها قرآنه الكريم، وجعل في قلب مدنها قبلته، وبيته الحرام، فأعلى شأنها، وخلد لغتها، وجعلها بفضل رسوله ﷺ أمة وسطا "كنتم خير أمة أخرجت للناس".

وكانت هذه الأمة الوسط بخصائصها التي تميزت بها جديرة بفضل الله تعالى واختيار خاتم رسله منها .

وقد شكل هذا منعطفاً تاريخياً في حياة العالمين، وتحولاً حضارياً متميزاً في نهج حياتهم وتعاملهم، كما تحول الخطاب في رسالته من قومية الأديان ومحدودية مقاصدها إلى عالمية الإسلام وشمولية دعوته وتكامل مقاصده .

وليس أدل على هذه الجدارة من أن الرسول ﷺ لم يختره الله لجواره الكريم، إلا وقد استجاب أهل الجزيرة لدعوته وتوحدوا جميعاً حولها، ووهبوا أموالهم وأنفسهم في سبيلها، ونفضوا عن أنفسهم، ما علق بها من غبار الجاهلية ونقائضها، وحملوا بعد ذلك دعوة الإسلام كما حملتها لهم خطبة الوداع التي كانت آخر الوصايا الجامعة للنبي ﷺ والتي وجهها للأمة كافة بعد رحلة جهاده الطويلة والدامية من الشرك والوثنية وأهواء البشر ..

شعيرة الحج وتوحيد صفوف الأمة :

ومن هنا أراد النبي ﷺ أن يلخص مبادئ الإسلام وأسسها، وأن يرسى مرتكزات الإصلاح سواء للفرد أو المجتمع .

وقد أوتي النبي ﷺ جوامع الكلم حيث وقف صلوات الله وسلامه عليه - وأحاط به المسلمون يَلْبَثُونَ ويكبرون، وتسمو أرواحهم إلى الملاء الأعلى فينسون الحياة، ولا يفكرون إلا في آيات الله .. فبإله من مجتمع كريم يتلاقى فيه المسلمون من كل فج وقد وُحِدَ بينهم الهدف والغاية، وألف بين قلوبهم دين أغناهم عن الأحساب والأنساب وأنساهم الحمية الجاهلية والعصبية القبلية .

وبإله من مؤتمر عظيم يعقد في كل عام . وضم المسلمين في أرجاء الدنيا على اختلاف أجناسهم ليتعارفوا ويتألفوا ويحققوا معنى الوحدة والتضامن، ويتشاوروا فيما يكفل لهم الخير، وأن مشهد الحجيج بدلالاته المتعددة إنما يبرهن على اجتماع أفراد الأمة على هدف واحد .

وفي هذا اليوم الخالد وقف المصطفى ﷺ وألقى على المسلمين خطبته الجامعة التي بين فيها أصول الدين وفروعه ومبلائه وآدابه كدعائم لوحدة الأمة.

والمتمأل حول نصوص خطبة الوداع وتحليلها يقف على أنها تشتمل على الأسس التالية :

- ١- تحديد العقيدة الإيمانية للمجتمع المسلم ممثلة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله الخاتم ﷺ .
- ٢- إعداد الإنسان المسلم "كقدوة" .
- ٣- بناء الأسرة الصالحة .
- ٤- إقامة المجتمع القوي المتماسك . "مظاهر توحيد الأمة" .

أولاً : تحديد العقيدة الإيمانية للمجتمع المسلم :

وذلك قوله ﷺ " قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله .
ألا هل بلغت اللهم فاشهد" .

إن أي نهضة إيمانية أو دعوة إصلاحية لا بد أن تنطلق أولاً من تحديد العقيدة التي تركز إليها، والمرجعية الإسلامية وإعلاء للكتاب والسنة فوق كل المناهج والعقائد .

فالمرجعية الإسلامية هي عقيدة المجتمع المسلم .

حيث سمع الناس لأول مرة في تاريخهم الإنساني مقولة المجتمع الإنساني الواحد "يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لأدم وأدم من تراب".

إن تحديد النبي ﷺ بالنسبة للمجتمع الذي يدين بالإسلام بضوابطه الإيمانية يعد في منتهى الأهمية لاسيما في أيامنا هذه حيث تتصارع العقائد المختلفة والمذاهب المتباينة وتحاول كل واحدة منها كسب المزيد من المنافع حتى صار العالم كله معتركا لهذا النزاع .

وإذا كان المنطلق الأول لأي نهضة إيمانية أو دعوة إصلاحية هو تحديد المرجعية - كما سبق - فإن مرجعية الكتاب "القرآن الكريم" للمجتمع المسلم من مقتضيات الإيمان ومستلزمات الامتثال لرب العالمين التي لا خيار لمسلم فيها .

وقد بينت آيت القرآن الكريم ذلك في مواطن متعددة كما أوضحت دون شك أن من يأبى هذه المرجعية ويتنكب طريقها يكون واقعاً بين عدوين لا ثالث لهما : إما الكفر وإما النفاق .

١- أما الكفر فلقول الله تعالى : "وَمَا يَجِدُ إِلَّا الْكَافِرُونَ" (سورة العنكبوت جزء من الآية ٤٧) , وقال تعالى في سورة المائدة : "وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ" (جزء من الآية ٤٤) .

٢- وأما النفاق فلقول الله تعالى في سورة النور "وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ" {٤٧} وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُّعْرِضُونَ {٤٨} وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ {٤٩} أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" .

والمتمثل في عبارة المصطفى ﷺ "إن أخذتم به لن تضلوا بعده كتاب الله تعالى. يجد تحقيق مدلولها حيث صار من البين الواضح مدى الضياع الذي تعانيه المجتمعات المسلمة حين تركت الاعتصام بالكتاب والسنة كمرجعية عليا ودستور حاكم وقانون ملزم واستبدلت بهما غيرهما وبتعبير آخر وفرض عليها غيرهما .

ثانياً : إعداد الإنسان المسلم "كقدوة" :

وهذا يمثل الأساس واللبنة الأولى في أي نهضة أو دعوى للإصلاح كما جاء في قول المصطفى ﷺ أيها الناس : "إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فليبلغ الشاهد منكم الغائب" .

وقوله ﷺ أيها الناس : "إن الشيطان قد ينس أن يُعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم" .

إن توجيهات الإسلام لمن آمن به تعتمد على تربيته على تقوى الله، وتقوى الله تعالى تجعل في نفسه رقيباً ذاتياً على أفعاله مرشداً إلى الخير ناهياً عن الشر حيث لا يحتاج في كثير من الأحيان إلى الوازع الخارجي والقوانين المتتالية لضبط سلوكه وتوجيهه .

وباستقراء سيرة الرسول ﷺ منذ البدايات الأولى لدعوته يتضح بجلاء مدى اهتمامه بإعداد الفرد المسلم "كقدوة" وتربيته على هذا الأساس "تقوى الله" مما يقطع بأن هذا الإعداد وتلك التربية هما اللبنة الأولى في أي نهضة أو دعوة إصلاح .

إن المجتمعات المسلمة في حاجة ماسة إلى بناء الفرد على أساس الإسلام ومبادئه وأخلاقه . كما أن مخاطبة الغرائز الدنيا للفرد المسلم وإشعار الناس

بالهات وراء الشهوات حيناً ووراء لقمة العيش وضروراته حيناً آخر لتغيب وعيهم؛ لهُو عمل يستوجب العودة إلى الفطرة الإيمانية لأنه بالبعد عنها يكون الإنسان أبعد عن أي بناء سليم لمجتمع قوي، فضلاً عن أن يكون إسلامياً يتصدى لما يحاك له مؤامرات لإبعاده عن فطرته .

ثالثاً : بناء الأسرة الصالحة :

وتتبع أهمية بناء الأسرة المسلمة من كونها اللبنة التالية لبناء المجتمع المسلم بعد تحديد مرجعيته وإعداد الإنسان على التقوى كما جاء في قول المصطفى ﷺ في خطبة الوداع "أيها الناس : "إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق ألا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحداً تکرهونه بيوتكم إلا بئذنکم.."

إن بناء هذه الأسرة المسلمة يقوم على تحديد الحقوق والواجبات لكل من الزوجين حتى يتفرغ كل منهما للمهمة العالية الموكلة إليه في بناء صرح الإسلام على الأرض، وأن كل حق في الإسلام يقابله واجب غير أن المتأمل في وصايا الإسلام للزوجين على وجه الخصوص في غير خطبة الوداع يلفت نظره أن الخطاب الموجه إلى أي طرف منهما يركز دائماً على حقوق الطرف الآخر عليه، وهذه هي نظرة الإسلام، وخطابه الراقى حين يعتمد على الإيمان وفعله في النفوس قبل أن يعتمد على باب الحقوق والواجبات القانونية الجافة، فالزوج مخاطب بقوله ﷺ : "خيركم خيركم لأهله" وقوله : "استوصوا بالنساء خيراً" .

كما أن الزوجة مخاطبة بقوله ﷺ "أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة".

وقوله : "لو كنت أمرا أحدا أن يسجد لغير الله لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها".

وبمراجعة معطيات العصر من موانيق تشريعية وأعمال سلوكية، يتضح أن هذه الفقرة من خطبة الوداع من أشد ما تحتاجه المجتمعات المسلمة الآن لما تدبجه قوافل الإلحاد التي تتعرض لها الأسرة المسلمة في الوقت الحاضر بطرح النموذج الغربي للعلاقة بين الزوجين، تلك العلاقة القائمة على الاستقلالية التامة والحرية المطلقة لكل منهما حتى يتسنى القضاء على الأسرة المسلمة التي احتفظت بشخصيتها وأخلاقيتها الإسلامية على مدار قرون طويلة.

رابعاً : إقامة المجتمع القوي المتماسك "مظاهر توحيد الأمة" :

وفي الخطبة إشارات متعددة لبناء هذا المجتمع في جانبين متكاملين :

- الجانب الأول : علاقة أفراد المجتمع بعضهم ببعض .

- الجانب الثاني : علاقة الحكم بالمحكوم .

ففي الجانب الأول بيان لبناء هذا المجتمع القوي الذي يبنى على العلاقة

الإيمانية بين أفرادها، وتتلخص هذه العلاقة في المصائب التالية :

١- تأكيد النهي عن الشرك والاستقامة على شرع الله تعالى بالأخوة المنطلقة من رحم الإيمان في قوله ﷺ "واعلموا أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين أخوة .

٢- المساواة وتأكيد ميزان التفاضل بين الخلق وأنهم متساوون في التكاليف بجانبها كتكاليف إيمانية أركان الإيمان وتكاليف عملية أركان الإسلام في قوله ﷺ "إن ربكم واحد كلكم لأدم وأدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم .." .

٣- الوحدة والترابط ونبذ التفرق والاختلاف في قوله ﷺ "فلا ترجعون بعدي كفراً يضرب بعضكم رقاب بعض" . وفي رواية "ضلالاً يضرب ببعضكم رقاب بعض" .

٤- التأكيد على حفظ النفوس وحرمة الدماء والأموال في قوله ﷺ "أيها الناس : إن دماءكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد....

إن إهمال هذه المصائب يساعد على إقامة العنصريات والقوميات والنعرات الطائفية كبديل عنها يراد منه في نهاية المطاف ما نلمس مقدماته الآن من تفكك وتشرزم وقلق وتوتر وانفصام لإبعاد الإنسان عن فطرته من جانب وإبعاده عن التحقق بإنسانية الإنسان التي جاء بها القرآن .

وأما الجانب الثاني من الجوانب التي أشارت إليها خطبة الوداع :

فيتلخص في بيان العلاقة بين الحاكم والمحكوم حيث أقامته الخطبة على دعامتين :

- الدعامة الأولى : طاعة أولي الأمر بالمعروف ونلك في قوله ﷺ "ياأيها الناس : اسمعوا وأطيعوا وإن أمر عليكم عبد حبشي ..

فشرط طاعته إقامة كتاب الله إشارة إلى إعلاء المرجعية الإسلامية والحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فإن فعل نلك وجبت طاعته . بخلاف ما لو حاد عن نلك فلا سمع له ولا طاعة، بل تجب مقاومته بالوسائل التي شرعها الإسلام من النصيح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

- الدعامة الثانية : تقديم القدوة والنموذج من قبل الحاكم لرعيته حتى تكمل طاعتهم له وقد أبان الرسول ﷺ المثل في خطبته بحكمين يتصلان ببعض أقاربه . فقد وضع في ربا عمه العباس ودم أحد بني عبد المطلب ونلك في قوله : "إن ربا الجاهلية موضوع" أي مهدر لا قيمة له ولا يعترف الإسلام به".

"وإن أول ربا أبدا به ربا عمي العباس بن عبد المطلب، وإن نماء الجاهلية موضوعة" ...

وفي هذه الرؤية الجامعة لوحدة الأمة من خلال خطبة الوداع بيان كامل للرد على كل الافتراءات والادعاءات التي حملتها أقوال هؤلاء وهؤلاء الذي خالفوا منطق الفطرة والتوحيد .

وللبیان نقول : أنه لا يخفى على منصف أن يجادل في أن لسان حال الأمة الإسلامية كما صورته نصوص حجة الوداع على لسان خاتم الأنبياء ﷺ يُعدُّ منعطفًا تاريخيًا في حياة الخلق كل الخلق حيث تحول الخطاب فيه من قومية الأديان ومحدودية مقاصدها إلى عالمية الإسلام وشمولية دعوته وتكامل مقاصده، ومن عزلة المجتمعات البشرية وتضادها وتصارعها إلى وحدة الأمة وتعاون مجتمعاتها، حيث سمع الناس لأول مرة في تاريخهم الإنساني فكرة المجتمع الإنساني الواحد كما جاء في نداء خاتم المرسلين حيث قال :

أيها الناس : "إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب . " كما سمعوا أيضاً لأول مرة نداء التعايش السلمي فيما بينهم من غير تمايز لأحدهما على الآخر مع اختلاف أقوامهم وأجناسهم وأعرافهم وأديانهم وأوطانهم .

كما أن المستقرء للسنة النبوية المطهرة يقف على أن النبي ﷺ كان يعمل على نشر الإخاء الإنساني الذي يتجاوز دائرة المسلمين إلى غير المسلمين حيث عقد مع اليهود حلفاً أساسه التعاون على الخير، وحماية الفضيلة، ودفع الأذى، وحماية المدينة من كل اعتداء ومنع الظلم، وردع العابثين بالأمن بصوره المتعددة كالأمن النفسي والأمن الاجتماعي والأمن الاقتصادي ..

وفي هذا البيان تحول شامل انتقل بالناس من ضيق القوميات والأجناس إلى الإخاء الإنساني العام لعموم رسالة الإسلام والدعوة إلى التحقق بمظاهر توحيد الأمة لسعادة الفرد والمجتمع .

وعلى هذا وذاك يتضح أن وحدة الأمة الإسلامية انبثقت من العقيدة الإسلامية فاستوعبت مضامينها وتشربت مبادئها واصطبغت بصبغتها حيث انطلقت من الإيمان بالله الواحد الأحد الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، وأن الإنسان هو ثمرة شجرة الخلق، أي الثمرة النهائية لشجرة الخلق، ومن المعلوم أن الثمرة هي أبعد أجزاء الشجرة وأجمعها وأطفها، ولذا فإن الإنسان هو ثمرة العالم وأبدع مصنوعات القدرة الربانية، وأن جميع الأنشطة البشرية تعمل على سعادته للوصول إلى درجتي التكريم والخلافة التي أرادها له خالقه، وأن كل عمل يقصد به تحقيق هذه الغاية هو عمل مشروع وهو عمل إنساني في المقام الأول، ولا أدل على ذلك من المقارنة بين حال العرب قبل الإسلام وحالهم بعده، وحال الإنسان في صدر الإسلام وحاله اليوم .

والمأمل في الرصيد البياني لوحدة الأمة من خلال خطبة الوداع يقف على مدى اهتمام الإسلام بحقوق الإنسان وليست الديمقراطية الغربية .. وأن هناك فارقاً شاسعاً بين حقوق الإنسان في الإسلام وحقوق الإنسان في إطار الإعلان العالمي لحقوق الإنسان .

إن هذه الأسس السالفة تتلخص في تحديد المرجعية وبناء الفرد وتكوين الأسرة وإقامة المجتمع القوي بتفاصيلها وجزئياتها التي تؤخذ من كتاب الله

والسنة المطهرة "المذكورة التفصيلية للكتاب" وهما السبيل لأي نهضة أو إصلاح لأحوال المجتمعات، التي تدين بالإسلام للوصول إلى المجتمع المسلم الواحد، الذي يقوم بلداء مهمته المتمثلة في قيادة البشرية الحائرة وردها إلى فطرتها من جانب، وإلى الاستقامة على شرع ربها من جانب آخر، والأخذ بيدها إلى الحياة التي تحقق للإنسان أن يكون ثمرة شجرة الخلق وتحقيقاً لإنسانية العالم والشهادة على الناس تحقيقاً لقول الله تعالى : "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كُنْتُمْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ" (سورة البقرة : الآية ١٤٣) . صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم ونحن على ذلك من الشاهدين . وصلى الله وسلم وبارك على معلم البشرية الخيرة .

المراجع والمصادر

- ١- مقدمة ابن الصلاح .
- ٢- سيرة ابن هشام .
- ٣- طبقات ابن سعد .
- ٤- الرحيق المختوم .
- ٥- السيرة النبوية للدكتور محمد الطيب النجار - طيب الله ثراه ورضي عنه .